تـوطـــئة

يجمع هذا الكتاب بين دفتيه مجموعة من المقالات التى حررتها خلال عدة سنوات من عقد التسعينيات . وقد انطلقت من جملة من الأحداث المأساوية التى تجرى على الساحة الفلسطينية فى معترك ذلك الصراع المحتدم بين الفلسطينين والأمة العربية من ناحية ، وبين إسرائيل والحركة الصهيونية وأنصارهـا مـن الناحيـة الأخرى . والحاصـل ـ كما يدل عنوان الكتاب ـ أنها جاءت تعبيراً محموماً عما تضطرب بين المشاعر والمواقف العربية ، إزاء مجريات ذلك الصراع والقوى المتداخلة فيه بصورة سافرة أو مستترة .

وإذا كانت بعض مظاهر تلك الأحداث قد تغيرت كثيراً أو قليلاً ، لكنها ماتزال تتجلى وتتواتر وتتلاحق ـ دون توقف ـ فى صور وأشكال مختلفة ، وفى أحداث مشابهة فى المضمون والرؤية الإسرائيلية منذ نشوء الحركة الصهيونية فى القرن التاسع عشر . وتحرك تلك الأحداث القديمة والجديدة والمستمرة أيديولوجية واحدة ، مهما تغير الطلاء على وجهها ،

وتلكم هى الأيديولوجية الصهيونية الساعية إلى الاحتلال والعدوان والسيطرة على أرض العرب ومواردها ، تحت مظلة القومية اليهودية ، مستندة إلى تزييف لوقائع تاريخية حين تزعم أنها كانت مستقرة على أرض فلسطين منذ عام ١٣٥م وهى السنة التى طرد فيها الرومان معظم اليهود من سكان فلسطين . ومزيفة لتفسيرات توراتية يقع معظمها فى سياق الأساطير أو مفاهيم أقرب إلى أضغاث أحلام .

وما تزال تلك الأيديولوجية تتغلغل وتنتشر وتترسخ ، بالقوة حينا ، وبالمال حينا ، وبأساليب الكذب والمناورة والمراوغة أحياناً أخرى .

وشواهد ذلك كثيرة فيما جرى على الساحة الفلسطينية منذ مذابح دير ياسين ، وانتهاء بمسيرة التسوية السلمية التى انطلقت من مدريد ، وما تبعها من اتفاقيات . وفى اعتقادى ، وفى اعتقاد الملايين من أبناء هذه الأمة أن جوهر تلك الأيديولوجية لم يتبدل ، وأنه مهما كان مصير عملية السلام ، سوف يظل الصراع العربى الإسرائيلى صراع وجود ، لا مجرد صراع حدود طالما استمرت الأيديولجية الصهيونية متمسكة بمقوماتها العنصرية والفاشية والعسكرية والنووية لاحتلال الأرض ، والاستغلال الاقتصادى فى أى صورة للاندماج مع المنطقة العربية والتى تجلت فى الآمال الإسرائيلية فى الهيمنة ، من خلال مشروع السوق الشرق أوسطية .

أزعم ـ والحيثيات تؤيد زعمى ـ أن الأيديولوجية الصهيونية لم تتغير فى حقائقها منذ أيام تيودور هرتزل ،والتى تؤمن بأن القوة بمختلف

وسائلها فوق الحق . يقول هرتزل : (إن التآخى العام بين الناس ليس حتى حلماً جميلاً ، فالعدو شرط ضرورى لأرفع مجهودات الإنسان وأسماها ... إن الإنسان الذى يخترع مادة شديدة الانفجار يعمل لأجل السلام أكثر من ألف داعية إلى اللطف والرفق واللين) ... وهل يقول نتنياهو فى العلن والسر غير ذلك ؟ ! .

إن استعلاء الصهيونية ونظرة الصهاينة إلى العرب ، لم يغيرها ما جرى خلال سنوات من مقابلات بغير مقابلات ، ومفاوضات بغير مفاوضات جرت بين الإسرائيليين وبعض القيادات العربية فى المشرق والمغرب ، ولم يتغير اصطفاء الله لهذا الشعب المختار من نظرته إلى العرب ، رغم ما وجهنا لهم من خطاب بصيغة (أبناء العم الأعزاء Dear Cousins) . وآيات الاستعلاء ظاهرة ومقتحمة لكل عين عربية ، ومهدرة لكل كرامة عربية ، لعل صفة الإذعان أهون تلك الصفات . ورغم ما ينتابنى ، أو ينتاب أى قارىء ـ من الحياء ، بل والاشمئزاز ـ فإنى أورد مقولة الصهيونى فلاديمير جابوتنسكى مؤسس الحزب الإصلاحى ، فى وصفه لأهل يافا من العرب عام ١٩٦٧ (إنهم عرب لوطيون ، أبناء زنا ، مشاكسون من يافا ، حثالة فى مرفأ قذر) * . وقد يقال ـ تبريراً لهذا الفحش ـ أنه متطرف أو متهور ، كما يوجد نفس

(*) وردت هذه المقولة فى مقال لأحد الكتاب الألمان فى صحيفة (دير شبيجل (العدد ٤٨ لسنة ١٩٦٧) ، كما جاء فى أحد تقارير الأمانة العامة لجامعة الدول العربية عن (القضية الفلسطينية فى شهر) السنة الثامنة العدد ٢٣ مايو / آيار ١٩٨٦ .

التبرير لمن ارتكبوا جرائم قتل المصلين فى المسجد الأقصى ، وفى الحرم الإبراهيمى .

وهل انتهت عنصرية شعب الله المختار مع ممارسة الضغوط الأمريكية على الجمعية العمومية للأمم المتحدة بتبرئة إسرائيل مما اتخذته الأمم المتحدة فى قرارات سابقة من إدانة الصهيونية كحركة عنصرية ؟ . إن نقاء الدم اليهودى والهوية اليهودية لا تتم إلا بإثبات انحدار الشخص من أربعة أجيال من الأمهات اليهوديات كما يؤكد الحاخامات . وأكثر من هذا ... فإن قاضياً صهيونيا أمريكيا ينادى بأن الدم اليهودى الذى يجرى فى عروق بنى إسرائيل يحمل تفوقاً معنويا وفكريا ، وعبقرية وموهبة خاصة باليهود . وتبقى فيهم حتى لو تخلوا عن الديانة اليهودية ، كما هو الحال بالنسبة إلى ماركس وسبينوزا ودزرائيلى) .

وهل نسينا مقولة مناحيم بيجين عقب توقيع معاهدة كامب ديفيد، حين ادعى أن اليهود قد أسهموا فى بناء الأهرامات فى مصر . ومن مظاهر الاستعلاء الأسطورى الخرافى ... ما ادعاه أحد الصهانية بقوله (إن حضارة الأندلس لم تكن عربية ، وإنما يهودية ، وإن فتح الأندلس تم على أيدى اليهود ، لأن الفاتحين كانوا من البربر ، وكان البربر شعباً يهوديا) .

ورحم الله خلفاء بنى أمية فى الأندلس ، حين قامت حضارتهم على المساواة بين المسلمين والنصارى واليهود وانفتحت آفاق الحرية فى عهد

عبد الرحمن الناصر ، ليسهم الجميع فى العمران والفنون والآداب والفلسفة .

ولعل عمق هذه الأيديولوجية الاستعلائية المعششة فى الذهن الإسرائيلى ، بصور قد تتفاوت فى الدرجة لا النوع ـ هى التى تتجلى فى زعمهم بأن الرخاء فى الشرق الأوسط إنما يتحقق فى تكامله بين عناصر الثروة النفطية ، توفر الأيدى العاملة الرخيصة ، والتى سوف تحركها نحو الإنتاج الوفير العقول الإسرائيلية ، ومعارفها العلمية ، ودراياتها التكنولوجية والتنظيمية ، مما لا يتوفر عند العرب .

تلك هى (الأيديولوجية العلمية) للصهيونية ، يتضح من مبادئها ومقولاتها ، فضلاً عن ممارساتها وأخلاقياتها على أرض الواقع العربى ما أشارت إليه بعض مقالات هذا الكتاب ـ والتى يتضح منها بجلاء أن قضية الصراع العربى الإسرائيلى ، هى معركة وجود وبقاء ونماء ، وليست مجرد حدود ومواقع لضمان الأمن الإسرائيلى . هى معركة مع الصهيونية العنصرية العدوانية ، وليست مع اليهود أصحاب أول ديانة سماوية .

ومع كتابة هذه المقدمة نتذكر موقف الولايات المتحدة الامريكية حين استخدمت حق الفيتو ضد بناء مستعمرة جيل أبو غنيم شرقى القدس رغم موافقة كل اعضاء مجلس الأمن من الدول الأعضاء . كذلك تصعقنا أخبار إسرائيل بملصقات ذلك الكاريكاتور المهين لنبينا (ﷺ)، ولقرآنه المجيد . كذلك تمتد الإهانة لنا ولإخواننا المسيحين عن طريق ذلك الكاريكاتور البشع عن السيدة مريم البتول عليها السلام .

ومقالات هذا الكتاب ليست مجالاً للاتهام بأننا أعداء السلام ، بل إننا متمسكون وساعون إليه بكل ما نملك من طاقات ، ونريده سلاماً عادلاً وشاملاً ، يسترد فيه العرب حقوقهم المشروعة فى الأرض والسيادة . ولسنا نحن ضد السامية ، فذلك اتهام قد استُهلِك وفقد مصداقيته حين يلقى فى وجه كل من يعبر عن أى انتقاد لسياسة إسرائيل العدوانية العنصرية .

أما بعد ..

لقد اعتمدنا فى ترتيب مقالات هذا الكتاب كما تم نشرها وعلى البعد التاريخى حسب ظهور تلك المقالات فى ارتباطها بما جرى من أحداث فى معترك الصراع العربى الإسرائيلى ، تنشيطاً للذاكرة . إن الذكرى تنفع المؤمنين .

القاهرة

يونيه ١٩٩٧